مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

العدد الثاني

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

البحر الأحمر
طريقاً للدعوة الإسلامية

د. عبد الشافي غنيم
الأستاذ ورئيس قسم التاريخ والمكتبات

لم يكن البحر الأحمر فى أى عصر من عصـــور التاريخ ، يحول بين الشعوب الآسيوية المتاخمة للساحل الشرقى منه ، وبين الشعوب الافريقية المتاخمة لساحله الغربى ، من الاتصال والاختلاط والاندمـــاج ، بل والتأثير الانثربولوجى والعقيدى والتجارى ، ولذلك كان التفاعل واضـــحا على مر العصور فى كلا الجانبين • وقصـــة البحر الأحمر ، بين هاتين المنطقتين ، تجعل منه ـ على عكس ما يتصور الكثيرون ـ وسيلة اتصال سهلة وميسرة ، منذ عرف الانسان كيف يتنقل على سطح الماء ، ويصنع القوارب والمراكب والسفن • وأبرز ظاهرة تاريخية فى ذلك الاتصال ، غلبة تأثير الشـــعوب الآسيوية ـ وبوجه أدق ـ شعوب شبه الجزيرة العربيـــة على الشعوب الافريقية ـ وبصفة خاصة ـ بلاد الصومال ، والحبشة ، والسودان ، ومصر ، فى التركيبات الجنسية ، والرسلات السماوية ، والتأثيرات التجاريـــة والاقتصادية •

ولقد أجمع مؤرخو العرب ، وعدد غير قليل من المؤرخين والمستشرقين وعلماء الاتثربولوجيا ، أن الموطن الاول للساميين هو بلاد العرب ، وعلى وجه أدق شرق وجنوب شرق شبه الجزيرة العربية ، اعتمادا على أسس كتابية ، وأركيولوجية ، وتاريخية ، وفيلولوجية ، وأن التأثير الحامى والسامى انتقل من شبه الجزيرة ، عبر بوغاز باب المندب ، الى القارة الافريقية ، وذلك ماتؤكده

الانسيكلوبديا البريطانية بقولها(١) : « ان التقارب فى المميزات الجنسية بين اليمنيين ، والاحباش أمر طبيعى ، لان الاحباش ليسوا الا خليطا من العناصر اليمنية بالاجناس الاخرى ، ولم تكن الحبشة بلدا منفصلا ، ولكن كان سكانها من مهاجرى العرب ، وذلك يفسر لنا السبب فى أن المؤرخين الاقدمين ، لم ينظروا الى اليمن والحبشة على أنهما قطرين منفصلين ، ولكن قسمين لقطر واحد أطلقوا عليه « اثيوبيا »(٢) « Ethiopia » .

والحقيقة التاريخية التى يجمع عليها كثير من المؤرخين ، وفى مقدمتهم دى غوية (De Goege) ووتكلر (Winchler) ونولدكه (Noldeche) وصمويل لانج (Samuel Laing) وروجر (Rogers) أن قسما كبيرا من الساميين عبر البحر الأحمر ، فى طريقه الى الحبشة ، والصومال ، وشمال السودان ، ومصر ، وشمالى افريقية ، وان ذلك الوجود السلالى القديم ، كان احد العوامل الاساسية فى نشر الاسلام بعد ذلك فى ربوع هذه البلاد .

أما عن العلاقات التجارية ، وتأثيرها عبر البحر بين الجانبين الشرقى والغربى ، ان صح هذا التعبير ـ فيتضح لنا ذلك من الدور الكبير ، الذى كان يلعبه هذا البحر فى التجارة العالمية ، فى التاريخين القديم والوسيط ، ومازال يلعبه فى التاريخ الحديث والمعاصر ، بل لعل طريق الشرق الاقصى عبر الخليج وسواحل شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، كان أبرز هذه الطرق ، ويكفى أن نذكر العلاقات التجارية التى كانت تربط بين موانى سيراف وقيس والبصرة والابله ، وهرمز وموانى معدر وعدن وعدوليس . وجدة وينبع والقلزم والسويس والطور وعيذاب وابلة وبولاق وغيرها ، لتوضح الى أى حد كان الاتصال متاحا بين شرقى البحر وغربه .

أما عن الرسالات السماوية فمن الواضح أن البحر الأحمر كان واحدا من بين القناطر التى عبرتها هذه العقائد الروحية العالمية .

---

(١) **Encyclopaedia Britt., VOI . XXIV , p.618 .**

(٢) لفظ اثيوبيا اسم قديم جاء ذكره فى كثير من الكتابات الاغريقية القديمة وغيرها من المراجع التاريخية والدينية الهامة ومعناها الاغريقى (الوجه المحروق) ولقد أطلقتها بعض المراجع القديمة وفى مقدمتها العهد القديم على ملك النوبة وامتد اطلاقها على سكان القارة الافريقية جنوب الصحراء واعالى النيل .

ويذكر المؤرخان الرندورف (Vellendorff)(٣) وترمنجهـــام (Trimingham)(٤) انه على الرغم من أن هناك بعض المقاطع المتناثرة فى العهد القديم (Old Testament) تشير الى أن اليهود الذين استقروا فى مصر واصل بعضهم مسيرته الى بلاد كوش والنوبة سنة ٥٨١ ق٠م الا أن الارجح أن بعض هؤلاء الذين تسربوا الى هذه البلاد والى بلاد الحبشة كان قليلا، لان الوثائق التاريخية المتعددة عن دخول الدين اليهودى ، الى جزيرة العرب قبل الميلاد ، واستقرارهم فى خيبر ويثرب ووادى القرى وفدك ، وغيرها ، هاجر كثير منهم مع بقية المهاجرين العرب قبل الميلاد الى الحبشة عبر البحر الأحمر ويبدو أنهم لم يهاجروا على هيئة جماعات ولكنهم انضموا الى مواكب المهاجرين كأفراد ، ثم كونوا بعد وصولهم جالية مستقلة ، وبدأ أثرهم يظهر فى ثقافة البلاد وحضارتها ، بصورة مستقلة ، وقد أدى ذلك الى اعتناق بعض الاجناس للديانة اليهودية ، وفى نفس الفترة كان أحفاد سليمان قد بدأوا نشاطهم التجارى فى البحر الأحمر ، بحثا عن الذهب ، وقد عزز ذلك استقرار الديانة اليهودية فى بلاد الحبشة ٠

ولا بأس هنا من أن نتعرض لاحدى القصص الخرافية التى كان يروجها ملوك الاحباش لتثبيت عروشهم وترسيخ قداستهم ، فى أذهان مواطنيهم ، ونحن نتعرض لها هنا ، بسبب ارتباطها بعملية الاتصـــال القديمة ، بين شعوب المنطقتين عبر البحر الأحمر ، ولذلك سنجتزىء منها ما يختص بهذا الجانب ، مستبعدين الجانب الآخر،لانه يتعارض مع أبسط القواعد الجغرافية، ويتنافى مع بعض الآيات القرآنية ٠ « يتداول الاحباش بتوجيه من ملوكهم قصة جمعها كتاب بعنوان وادى الملوك »(٥) وهو أحد كتبهم المقدسة أنـــه نتيجة للاتصال الذى تم بين الملكة بلقيس مكلة سبأ(٢) وسليمان فى بيت المقدس ، أن أنجبا ولدا يدعى « منليك » الذى عين بعد ذلك كأول ملك لاسرة ملوك الاحباش ، وأنه سرق وهو فى طريقه الى الحبشة « تابوت العهد » من أبيه ، وحفظه فى عاصمته اكســوم ، التى أطلق عليهـــا « أرض صـهيون

---

(٣) **The Ethiopians**, p.50.

(٤) **Islam in Ethiopia** , p.19 .

(٥) Uiiendorff, **The Ethiopians**, pp . 143-144 .

الجديدة »(٦) ٠

أما عن دخول المسيحية الى الحبشة، فيتعرض لها ترمنجهام Trimingham ، بشيء من التفصيل قائلا : بدأت المسيحية تتسرب الى شرقى افريقيا ، وخاصة الحبشة ، على يد تجار المدن الشرقية للبحر المتوسط ، وفى مقدمتها مدينة صور ، وتذكر الروايات المسيحية ، أن الاحباش أسروا ركاب احدى سفن مدينة صور فى احدى الموانى الحبشية على البحر الآحمر ، وكان من بينهم اثنان من القساوسة ، احدهما فرومنتيوس Fromentius ، والثـــانى اوديسيوس Odisius ، وأعجب ازانا Azana ملك الحبشة بالرجلين ، فقربهما اليه ، واستطاع هذان القسيسان أن يقنعا الملك الحبشى باعتناق المسيحية ، وسمح لهما بالدعوة لها ، فتعاونا مع التجار اليونانيين المقيمين هناك ، على بناء الكنائس ، واقامة الشعائر المســـيحية ، واخذوا يمهدون لانتشار ونمو المسيحية هناك ، ولم تمض فترة ، حتى كانت المسيحية هى الديانة الرسمية فى الحبشة والبلاد المحيطة بها ، مما جعل كنسية الاسكندرية تعين المطارنة هناك لرئاسة الكنيسة الحبشية ٠

وفى عام ٥٢٤ م ، طلبت الامبراطورية البيزنطية ، من الاحباش ، حماية المسيحيين الذين يعيشون فى جنوب الجزيرة العربية ، من ظلم الملك الحميرى اليهودى ذى نواس ، وصدع امبراطور الحبشة ايلا اصبحة Ela Asbeha بالامر ، وأرسل جيوشه بقيادة أرياط لغزو اليمن ، وانتهت الحرب بانتصار الاحباش ، وهزيمة ذى نواس وعين أبرهة ملكا على اليمن ، وقد سجلت أيام هذه الحقبة من تاريخ العلاقات بين الحبشة على سد مأرب(٧) ٠

الاسلام يعبر البحر الأحمر الى افريقيا :

لقد كانت الدعوة الاسلامية ، عبر البحر الأحمر الى افريقية ، من منابعها

---

(٦) يذكرون خطأ ان سبأ فى اقليم ارتريا وذلك يخالف الواقع الجغرافى والتاريخى وما ورد فى القرآن الكريم ٠

(٧) Trimingham, **Islam In Ethiopia**, pp . 38 - 39 .

الأصلية فى مكة ، أقصر طريقا وأيسر منالا منها الى كثير من بلدان شبه الجزيرة العربية ، ومنها يثرب ، مدينة الهجرة ، فعندما اشتد الايذاء على السابقين الى الاسلام من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أذن لهم فى الهجرة الى الحبشة ، قائلا : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فأن بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه(٨) فكانت أول هجرة فى الاسلام سنة ٦١٥ م (السنة الخامسة بعد الدعوة)(٩) .

ويذكر النويرى(١٠) فى تعليل اختيار الرسول للحبشة دون غيرها من البلاد الكتابية أو الوثنية ، وفى تبرير وصفه لملك الحبشة انه ملك لا يظلم عنده أحد ، رواية عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، ان نجاشى الحبشة « أصحمه » كان أبوه ملكا على الحبشة ، وهو فتى صغير ، فنازعه عمه الملك ، واستولى عليه من أخيه ، وتشرد الصبى أصحمه حتى بيع الى رجل عربى من بنى ضمرة ، فمكث ببلاد العرب مدة تعرف فيها على عاداتهم ، ولهجاتهم ، ثم عاد الى الحبشة واستعاد ملك أبيه ومن هنا كان سر التعاطف ، بينه وبين العرب بوجه عام .

ومهما يكن من أمر ، فقد اثبت اختيار الرسول للحبشة ، أنه كان اختيارا سليما لان معظم المدن والقبائل العربية ، كانت حتى ذلك الوقت تقف موقف المكابر المعاند ، من الدعوة الاسلامية ، بالاضافة الى احتمال مجاملتها لقريش كبرى القبائل فى شبه الجزيرة العربية ، كما أن ايفادهم الى الحيرة أو الشام ، محفوف بالخطر ، لانها كانت أسواقا يتردد عليها العرب ، بين حين وآخر ، أما التفكير فى ارسالهم الى مواطن أهل الكتاب من قبائل العرب المعتنقين للديانات اليهودية والمسيحية فقد استبعد لشدة عدائهم للاسلام ، والخوف من منافسته لعقائدهم ، كما جاء فى قوله تعالى « ذلك أنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل »(١١) .

---

(٨) ابن هشام : سيرة النبى جـ ١ ص ٣٤٣ .
(٩) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ص ٩٢ .
(١٠) نهاية الارب فى فنون الادب جـ ٦ ص ٢٥٢ .
(١١) سورة آل عمران آية ٢٥ .

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن(١٢) ، أن الحبشة كانت أقرب البلاد المسيحية التى يحكمها ملك مسيحى الى الجزيرة العربية ، والسفر اليها أهون أمرا وأسلم عاقبة ، اذ لايزيد عن كونه عبورا للبحر الأحمر ، وهو أسلم من اختراق الجزيرة العربية ، شمالا وجنوبا ، من خلال القبائل العربيـــة المعادية ٠

وليس من شك فى أن أعداء الدعوة ، لم يخطر ببالهم أبدا ، أن يضحى السابقون الى الاسلام بوطنهم ، ومهد حياتهم ، وأن يذهبوا الى هذا البلد البعيد عن مواطنهم الاولى ٠

ويذكر أبو محمد عبدالملك بن هشام(١٣) عن زياد بن عبدالله البكائى عن محمد بن اسحق المطلبى ، أن عددا كبيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج الى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفرارا الى الله بدينهم ، ذهبوا فى سفينتين تجاريتين ، لقاء نصف دينار عن كل واحد منهم ، ورست السفينتان عند مكان على الشاطىء اسمه « معدر » جنوبى ميناء « عدوليس » ، الميناء الاريترى القديم ، ومن هناك اتجهوا نحو « اكسوم » « الحبشة » ، وكان مجموع المهاجرين من المسلمين ، ــ سوى ابنائهم الذين خرجوا معهم صغارا أو ولدوا بها بعد ذلك ــ ثلاثة وثمانين رجلا ، ويذكر ابن هشام عددا كبيرا من الاسر العربية المهاجرة فى مقدمتهم من بنى أميـــة عثمان بن عفان ابن ابى العاص ، وامرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو(١٤) ، ومن بنى أسد الزبير ابن العوام بن خويلـد ، ومن بني عبد الدار مصـــعب بن عمير بن هاشم ، ومن بنى زهرة ، عبد الرحمن بن عوف ، ومن بنى مخزوم ، أبو سلمة بن عبد الاسد وامرأته أم سلمة بنت أبى ابن المغيرة ، ومن بنى جمح، عثمان بن مظعون ، ومن بنى عدى عامر بن ربيعة ، ومن بنى هذيل ، عبدالله بن مسعود ، ومن بنى بهراء ، المقداد بن الاسود ، ومن بنى جمح ، شرحبيل بن

---

(١٢) تاريخ الاسلام جـ ١ ص ٨٧ ٠

(١٣) سيرة النبى جـ ١ ص من ٣٤٣ ــ ٣٥٧ ٠

(١٤) رسول قريش الى محمد صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية بعد ذلك ٠

حسنة ، ومن بنى الحرث ، أبو عبيدة بن الجراح ،وغيرهم كثيرون من مختلف القبائل • انما قصدنا بسرد بعض الاسماء والقبائل ، لنبين الى أى حد جمعت هذه الهجرة ، من القبائل العربية ، ومن الرجلات الذين لمعت أسماؤهم فى التاريخ الاسلامى ، منهم من اعتلى منصب الخلافة الصحابية كعثمان بن عفان، ومن رشح لها كعبد الرحمن بن عوف ، احد الستة الذين قدمهم عمر بن الخطاب قبل وفاته ومن كبار كتاب الوحى ، الذين تزعموا تدوين القرآن الكريم ، كعبد الله بن مسعود ، ومن كبار قادة الفتوحات الاسلامية ، كالمقداد بن الاسود ، وشرحبيل ابن حسنة ، وأبو عبيدة بن الجراح ، القائد العام لفتوحات الشام والزبير بن العوام •

وليس من شك فى أن هذه الموجة الاولى ، فى فجر الدعوة الاسلامية ـ سواء منها ما عاد الى الوطن الام فى صحبة رسول الله ، ومن بقى منهم على هذه الارض ـ الجديدة الوفيرة الخير والمعطيات ـ قد بشروا بالديانة الاسلامية بين أهالى هذه البلاد ، خاصة بعد ذلك الحوار الذى دار أمام الجميع ، فى حضرة النجاشى « أصمحة»(١٥) بين رسل قريش عبدالله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص(١٦) ، وبين جعفر بن أبى طالب أحد قادة المهاجرين ، وفى حضور بطارقة الكنسية الحبشية ، وأراد عمرو بن العاص ، وهو المعروف بذكائه وكيده ، أن يشكك الملك ورجال الكنيسة فى موقف الاسلام من المسيح عليه السلام ، وتصور عمرو أنه بذلك سوف يسوق المهاجرين أمامه ثانية الى مكة ، ولكن جعفر بن أبى طالب، قال لهم « انما نقول فى عيسى عليه السلام ما يقوله نبينا عليه الصلاة والسلام فى ذلك ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول »(١٧) ، ثم قرأ جعفر شيئا مما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، قائلا : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، حتى بعث الله رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء

---

(١٥) ابن هشام : جـ ١ ص ٣٠٢ •

(١٦) ابن هشام : جـ ١ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ •

(١٧) عبد السلام هارون : تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٨ •

الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا(١٨) الخ ٠

ولسنا هنا بصدد الروايات المختلفة ، التى تتحدث عن أبعاد هـــذه الهجرة وأهدافها ، أهى هجرة أم اثنتان أم ثلاثا أم أربعا ، وأى هذه الهجرات هى التى حملت خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى(١٩) انما الذى يهمنا فى هذا المقام ، ونحن نتحدث عن « البحر الاحمر ، طريقا للدعوة الاسلامية » ، انها حقيقة تاريخية ، وانها كانت أول بداية اسلامية على طريق الدعوة ، أما عن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ، الذى يعرض عليه فيه اعتناق الاسلام ، وهو أول دعوة اسلامية صريحة من امام الدعوة الى ملك الحبشة عبر البحر الاحمر(٢٠) ٠ لقد جاء فى ذلك الخطاب الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم مع عمرو بن أمية الضمرى ٠ « من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة ، انى أحمد اليك الله الملـــك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملته من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيد ، وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فانى رسول الله ، وانى ادعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى ، وقد بعثت اليكم ابن عمى جعفرا ومعه نفر من المسلمين والسلام على من اتبع الهدى » ٠

ويذكر البعض أن السبب فى اختيار عمرو بن أمية الضمرى ، لحمل كتاب الرسول الى النجاشى دون رجال من أمثال عثمان بن عفان وجعفر بن أبى طالب وأبى عبيده بن الجراح ، أن بنى ضمره هم الذين استضافوا أصحمه ، فى هجرته وفق القصة التى سبق أن تناولناها بالحديث ، ومهما يكن من أمر فالذى يمكن أن نستنتجه من ذلك كله :

---

(١٨) للاستزادة من هذا الموضوع يمكن الرجوع الى د٠ عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ٠ د ٠ عبد السلام هارون : تهذيب السيرة ٠

(١٩) تذكر بعض المراجع انه كان هناك اتصالان كتابيان بين الرسول والملك اولهما مع أصحمة والثانى مع ابنه ارمحة ٠

(٢٠) Budge, AHistory of Ethiopia, p.198 .

اولا : أن هذه الهجرة الاولى الى الحبشة ، لم تكن مجرد استجابة لظروف محلية ، تعرض فيها المسلمون للاضطهاد والايذاء ، وانما كانت الى جانب ذلك حركة دعوة الى الاسلام فى هذه البلاد الوثيقة الصلة ببلاد العرب منذ أقدم العصور ٠

ثانيا : ان اختيار هذه البلاد ، غربى البحر الاحمر ، فى هذا الوقت من فجر الدعوة الاسلامية ، انما يدل على أنها ربما كانت من أقرب البلاد طريقا الى مهبط الدعوة الاسلامية ، وأن البحر الاحمر ربما كان أسهل على المسافر من قطع الطرق الصحراوية القاحلة المعرضة للاخطار ٠

ثالثا : أن توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم الى المهاجرين الاوائل من أصحابه وكتابه ، الى أى من (أصحمه أو أرمحه) انما يدل على توقعات مرضية ومطمئنة من جانب النجاشى ، والا لما غامر الرسول بهجرة هذا النفر الكبير من صحابته فى رفقة أزواجهم وأبنائهم ٠

رابعا : انه ربما يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارسل الى النجاشى كتابين ، أحدهما فى عهد « أصمحة » مع جعفر بن أبى طالب ، والثانى فى عهد « أرمحة » مع عمرو بن أمية الضمرى ، وفى ذلك محاولة لحصر الخلاف بين المؤرخين حول هذا الخطاب ، من جانب الرسول (حامل الخطاب) والمرسل اليه ، وهو الملك حيث أن بعض المصادر ترد ، حامل الخطاب الى جعفر والمحول اليه الى اصمحة ، وأخرى ترد حامل الرسالة الى الضمرى ، والمحمولة اليه الى والده أرمحة ٠

خامسا : أن فكرة الدعوة الى نشر الاسلام ، بدأت من فجر البعثةالنبوية، وكان محمد صلى الله عليه وسلم ، أول مبشر بها ، وداعية اليها ، داخلوخارج شبه الجزيرة العربية ٠ وكان المسلمون الاولون والمتأخرون ، يعتبرون نشر الدعوة واعلام الناس بها ، ركنا من أركان العقيدة ، لا يختص بها واحد ، دون آخر ، ولعل ذلك هو سر انتشار الدعوة فى مختلف انحاء الارض ، وذلك ماسوف نتعرض له بشىء من التفصيل فى نهاية هذا البحث الموجز ٠

تطور انتشار الدعوة الاسلامية عبر البحر الأحمر :

لقد كانت هذه الهجرة المبكرة ، عبر البحر الاحمر الى أفريقية الشرقية ، بداية لانتشار الاسلام فى القارة الافريقية ، وربما كان هذا البحر المعبرالسلمى الكبير ، الذى عبرت منه الدعوة ، دون ماحاجة الى الجيوش والاساطيل كما حدث فى عمليات الفتح الاسلامى الواسعة ، التى أتاحت للمسلمين فرص الاعلام عن الدين الجديد .

والعرب بطبعهم ، ميالون الى الهجرة ، حيث يكون الاستقرار ، سواء كان داخل الجزيرة العربية ، أو خارجها ، ميالون الى لم الشمل ، واستقطاب الاهل والجيرة والعشيرة ، فما يكادون يستقرون فى مكان ، يكفل لهم الحياة الهانئة ، ومطالب المعيشة المستقرة ، حتى يبعثون فى طلب فروعهم ، وأبناء مجتمعهم ، ولم شمل قبائلهم ، ولعل فى هذه الأبيات الشعرية التى أنشدها عبدالله بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد أحد المهاجرين الذين استقروا فى الحبشة ما يوضح لنا هذه المعانى :

يا راكبا بلغا عنى مغلغلة(٢١) من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهور ومفتون(٢٢)
انا وجدنا بلاد الله واسعة تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخزى فى الممات وعيب غير مأمون

وهنا قد يثور تساؤل ، عن الأسباب التى جعلت المسلمين يغضون أبصارهم عن غزو الساحل الشرقى لافريقية ، فى فورة الفتوحات الاسلامية ، كما فعلوا بالنسبة للعراق والشام ، ومصر وشمالى أفريقية ، ولعلنا نجد الاجابة على هذا التساؤل فيما يلى :

اولا : على الرغم من العلاقات التجارية التقليدية بين الجانبين ، الا أن

---

(٢١) الرسالة ترسل من بلد الى بلد .
(٢٢) المغلوب على أمره .

معرفة المسلمين بشرق أفريقية قبل ظهور الاسلام ، لم يكن يتعدى المناطق الساحلية ، بالاضافة الى أن استخدام السفن والأساطيل الحربية ، لم يظهر بشكله المؤثر الا بعد قيام المسلمين بفتوحاتهم الأخرى ٠

ثانيا : يذكر صاحب السيرة الحلبية(٢٣) ان علاقات المسلمين بالنجاشي، فى فجر الاسلام ، كان لها أثر فى تجنب الصدام العسكرى بين الجانبين ، حتى أنه يروى ان النبى صلى الله عليه وسلم نصح بترك الاحباش وشأنهم طالما أنهم لم يبدأوا بالعدوان ، وقال « اتركوا الاحباش ماتركوكم » ، ونحن نعلم أن أول محاولة لغزو الشام كانت استجابة من أبى بكر الصديق ، لرغبة من الرسول فى انفاذ أسامة بن زيد ٠

ثالثا : انتشار القراصنة الأفارقة فى البحر الأحمر ، فى هذه العصور مما كان يهدد أية محاولة فى هذا السبيل ٠

ولذلك فانه لما اشتدت أعمال القرصنة فى عهد عمر بن الخطاب ، وأخذت تهدد تجارة العرب فى البحر الاحمر ، أوفد حملة بحرية لتأديبهم ، واستمر نشاط القرصنة هناك الى درجة اضطرت المسلمين فى عام ٨٣هـ ، الى اتخاذ خطوة حاسمة لوضع حد لتلك العمليات ، بأن جردت حملة بحرية ، فى عهد الخليفة الأموى ، عبد الملك بن مروان ، احتلت مجموع جزر « دهلك » المجاورة لمدينة مصوع مما أتاح للمسلمين بعد ذلك فرص السيطرة ، على باقى المراكز البحرية على الشاطىء الافريقى ، وعلى الانتشـــار التدريجى للاسلام فى الشرق الافريقى(٢٤) ٠

ومهما يكن من أمر ، فانه الى جانب الهجرات المستمرة لبعض القبائل العربية ، عبر البحر الأحمر لشرق أفريقية ، التى أخذت تنضم تدريجيا الى فروعها التى سبقتها الى هذه البلاد ، فان الظروف السياسية ، التى مرت بالدولة الاسلامية ، والصراعات الحزبية والطائفية ، جعلت من البحر الاحمر ،

---

(٢٣) الجزء الثالث ص ٢٩٤ ٠

(٢٤) فتحى غيث : الاسلام والحبشة عبر التاريخ ص ٦٠ ٠

معبرا للمهاجرين والقارين والمخاطرين الى شرق أفريقية ، وخاصة بعد الفتنة الكبرى ، وعقب الصراع بين على ومعاوية ، والخلافات والنزاعات القبلية بين القيسية والكلبية ، ومصارع كبار العلويين ، وفى مقدمتهم الحسين بن على ، وزيد بن على زين العابدين ، وولده يحيى ، الى غير ذلك من الاحداث السياسية، التى فتحت أعين أصحاب هذه المذاهب والطوائف على البحر الأحمر ، والحياة فى مناطق ارتريا والصومال والحبشة وشمال السودان ، حيث لا توجد الولايات والامارات التابعة للأمويين ، أو العباسيين ، الذين كانوا لا يتركون أعداؤهم يستقرون فى أية دولة ، أو امارة ، تخضع لحكمهم وكان للعلويين وعلى الاخص الزيديين نصيب كبير فى هذا المجال الآمن الفسيح ، حيث الشعوب الافريقية ، أقرب الى الفطرة ، وأيسر فى الاقتناع بالمذاهب والآراء المختلفة ، وتطور الامر ـ كما سنرى ـ الى تكوين امارات ، وممالك ، وسلطنات اسلامية فى هذه البلاد ، وضعت من الجذور الاسلامية مازال باقيا وممتدا الى الآن .

اذا أضفنا الى هذه الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التى ساعدت على نشر الاسلام فى أفريقية الشرقية ، عنصر النشاط التجارى العربى ، الذى كان سابقا حتى على ظهور الاسلام ، أدركنا الى أى حد لعب التجار المسلمون الذين عبروا البحر الأحمر ، دورا فى نشر الاسلام ، نتيجة احتكاكهم بالعناصر المختلفة من المسيحيين والوثنيين ، وتجولهم فى المناطق المختلفة ، سعيا وراء التجارة ، ومصادر الرزق ، فكان هؤلاء التجار هم دعاة الاسلام ، الذى انتشر على أيديهم اينما تغلغلوا فى أفريقية ، وكان مايتصفون به من حسن المعاملة والصدق ، أثر كبير فى كسب الاحترام والثقة ، وعن هذا الطريق البسيط انتشر الاسلام انتشارا منقطع النظير(٢٥) وليس من شك فى أنه كان هناك من العوامل ما ساعد المسلمين ، على نشر دعوتهم فى أفريقية ، نخص بالذكر منها ما يلى :

أولا : ان ظهور الاسلام ، كان مواكبا لقمة الخلافات فى داخل الكنيسة المسيحية ، وخاصة بين الكنيستين الشرقية والغربية ، حول طبيعة السيد

---

(٢٥) فتحى غيث الاسلام والحبشة عبر التاريخ ص ٦٩ .

المسيح ، والجدل حول المينوفيزية والايقونية وقد ترك ذلك أثره على المسيحيين في مختلف أنحاء العالم ، وتحول المسيحيون لزعزعة ايمانهم نتيجة للجدل المستمر والمجمعات المسكونية المتعاقبة ويرى بعض فلاسفة الفكر ، أن ظهور الاسلام في النصف الاول من القرن السابع الميلادى ، كان ضرورة اقتضتها الارادة الالهية ، لمجابهة هذه الخلافات ، ووجد الناس في تسامحه وبساطته ، ملجأ من هذه المجادلات ، التي لا تنتهي ولا تعرف اللين والتسامح ٠

ثانيا : ان الدعوة الى الاسلام ، كانت على بساطتها جهدا ذاتيا شخصيا، لا يستند الى مؤسسات تبشيرية تمدها بالقوة والمال كما هو معهود في السياسات التبشيرية الكنسية ، واذا كانت العصور الاخيرة ، قد شاهدت بعض الجامعات الاسلامية ، التي أخذت على عاتقها تنظيم نشر الدعوة الاسلامية وتثبيتها ، الا أنها لم تبلغ في تأثيرها ما وصل اليه هؤلاء الأشخاص الاوائل والذين كانوا يعملون فرادى بجانب نشاطهم التجارى أو الديني ٠

ثالثا : اضطراب الاحوال الداخلية آنذاك ، في شرقي أفريقية ، وكثرة الحروب بين ملك اكسوم وجيرانه ، بل واتباعه من حكام المناطق ، بالاضافة الى ضعف سلطان الكنيسة هناك ، والخلاف المستمر بين السلطتين الزمنية والدينية ، وخلو منصب المطرانية في كثير من الأوقات ، بسبب الظروف التي كانت تمر بها كنيسة بيزنطة في ذلك الوقت ، مما ساعد على تغلغل الاسلام وتسلله الى قلوب الافراد والجماعات ٠

رابعا : أن الاسلام كان يواجه في شرق أفريقية هيكلين ضعيفين ، ما بين المسيحية والوثنية ، والأولى كما سبق أن ذكرنا كانت تمر بفترة التمزق ، من تاريخها ، بينما كانت الوثنية لا تلبث أن تتداعى أمام قوة الديانة الجديدة وجاذبيتها وبساطتها وشمولها على كل ما يحيط بحاجة الانسان ، ولذلك كانت الاستجابة لاركانه وتعاليمه مشجعة للمسلمين على المضي في طريقهم(٢٦)٠

ويذكر السيد توماس آرنولد(٢٧) أن أحد الكتب العربية التي تعرضت

---

(٢٦) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن) ص ٨٨ ، ٨٩

(٢٧) الدعوة الى الاسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين) ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ٠

لانتشار الاسلام فى شرق أفريقية ، كتاب وجده البرتغاليون فى مدينة كلوا(٢٨) ، Kiloa حين اجتاحها دون فرنسيسكو داليدا ، Don Francisco d'Almeida سنة ١٥٠٥م(٢٩) يتحدث ذلك المصدر عن « ان جماعة من العرب ، تم نفيهم الى افريقية ، بسبب تعاليمهم الخارجة على الدين ، وكان هؤلاء يتبعون شخصا يدعى زيدا من سلالة النبى وقد اطلق على هذه المجموعة المنفية من المسلمين «اموزيديج»(٣٠) ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ويظهر أن هذه الجماعة ، عاشت فى خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين ، ولكنها نجحت بالتدريج ، فى بسط مواطنها على طول الساحل ، حتى جاءتها جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطىء الغربى للخليج العربى من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين ، وجاء هؤلاء فى سفن ثلاث بزعامة سبعة اخوة هاربين من اضطهاد ملك «لاساه»(٣١) وهى مدينة قريبة من موطن قبيلتهم وأول مدينة قام المسلمون ببنائها هى « مجدكسو »(٣٢) التى ارتفعت فيمابعد الى تلك القوة التى جعلتها سيدة على كل عرب الساحل ، ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم « الاموزيديج » ، من حزب يختلف عن حزب النازحين الجدد ، حيث كان الأولون من الشيعة ، والآخرون من أهل السنة ، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكـــام مقديشيو ، وارتدوا الى الداخل ، حيث اندمجوا فى السكان الاصليين ، وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم » ٠

هذا النص ، يؤكد ماذهبنا اليه من تأثر وانتشار الاسلام فى شرقى أفريقية عبر البحر الأحمر ، بالوحدات السياسية التى حدثت فى الدولة الاسلامية ، ذلك أن مالقيه زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنه ، على يد يوسف بن عمر أمير الـــكوفة فى عهد الخليفـــة الأموى هشام بن عبد االملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) (٧٢٤ ــ ٧٤٣ م) وكيف

---

(٢٨) تقع على جزيرة جنوبى زنجبار ٠
(٢٩) الم يذكر توماس ارنولد اسم هذا المصدر العربى ٠
(٣٠) لعله يقصد امة زيد بن على العابدين بن الحسين ٠
(٣١) لعله يقصد « الحساء » ٠
(٣٢) لعله يقصد مقديشيو عاصمة الصومال ٠

تم مصرعه ، والتنكيل بجثته ، قد أدى هرب اتباعه من الزيديين ، الى جنوب وجنوب غربى وشرق شبه الجزيرة العربية ولكن عيون الخليفة الأموى ، وكان من أشد الامويين تنكيلا بالعلويين(٣٣) جعلت هؤلاء الزيدين يخشون على أنفسهم من دعوة الامويين فعبروا البحر الأحمر واتجهوا نحو الاقليم المعروف بالصومال حاليا فى شرقى أفريقية ، وأسسوا مدينة مقديشيو ، واختلطوا بالافارقة ، وأسهموا بدور كبير فى نشر الدين الاسلامى بوجه عام ، وآراء الزيدية العلوية بشكل خاص ٠

ثم توالت بعد ذلـــك أفواج المسلمين ، عبر البحر الأحمر الى شرقى أفريقية ، ولم يقتصر الأمر على الشيعة الزيدية ، وكان فوج الحسا من أهل السنة ، الذين فروا هاربين من اضطهاد أمير الاحساء ، ووصلوا الى الصومال ، قد وصلوا فى أثر الزيدية وعاشوا بالقرب منهم ، وبعد ذلك وصل فوج آخر ، يتزعمه أحد أبناء سلاطين شيراز ، ويدعى حسن ، من أم حبشية الأصل ، أبحروا من جزيرة هرمز ، بزوجاتهم وأولادهم ، متجاوزين عن الاقاليم التى سكنها من قبلهم من المسلمين ، واتجهوا جنوبا صوب ساحل زنجبار ، وكانوا قد تسامعوا بوجود مناجم الذهب هناك ، وأسسوا مدينة « كلوا » وعاشوا فى شبه امارة مستقلة عن اخوانهم من الشيعة والسنة فى الصومال(٣٤) ٠

ولم يمض وقت طويل ، حتى ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقى ، لافريقية من خليج عدن ، حتى مدار الجدى ، على حافة ما كان جغرافيو العرب فى العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج ، وتوجد قصة نقلها توماس آرنولد نقلا عن المستشرق الالمـــانى دى باروز De Barros والمستشرق الانجليزى كلود جورج Claude George (٣٥) تقول القصة « ان سفينة تجارية عربية أقصتها الرياح ، عن طريق مسارها

---

(٣٣) تم فى عهده ايضا مصرع يحيى بن زيد فى خراسان ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) وصلبه واحراقه وذر رماده (أنظر كتاب فرق الشيعة لابى الحسن النوبختى ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

(٣٤) الدعوة الى الاسلام ص ٢٨٧ ٠

(٣٥) **Islam and Missions**, pp . 73 ? 74 .

١٩٢٢ ، وأرسلتها الى بلاد الزنج ، ولما كان البحارة العرب يتصورون من بين الزنج بعض أكلة لحوم البشر ، فقد توقعوا الموت المحقق هناك ، غير أنه حدث مالم يكونوا يتوقعونه ، حيث تلقاهم ملك الزنج ، وأحسن وفادتهم ، وأتاح لهم فرصة بيع تجارتهم فى بلاده غير أن التجار العرب ردوا عليه كرمه بخيانة ، فأوثقوه مع حاشيته أثناء توديعه لهم يوم سفرهم ، وحملوهم الى عمان رقيقا ، وبعد سنوات قليلة ، جنحت بهم سفينتهم الى نفس الشاطىء، وعرفهم الاهالى وأسروهم ، وسيقوا أسرى الى الملك ، وكم كانت دهشتهم حين وجدوا نفس الملك الذى سبق لهم أن أخذوه أسيرا الى بلادهم ، غير أن الملك لم يعاملهم بمثل ماعاملوه به ، وسمح لهم بترويج بضاعتهم ولكنه رفض هديتهم ، وقص عليهم كيف أنه هرب من مولاه الذى التحق بخدمته فى عمان ، وكيف اعتنق الاسلام ، وعاد الى شعبه ، ينشر بينهم أركان هذا الدين ، من صلاة وصيام وحج وحلال وحرام ، وأعلن لهم أنه عفا عنهم لأنهم كانوا السبب فى اعتناقه لدين الاسلام ، وأنه يرحب بكل مسلم يهاجر الى بلاده ٠

ومهما يكن من أمر فان الاسلام اخذ ينتشر على السواحل الشرقية لافريقية من عمان وشرقى الجزيرة العربية ، ويذكر المستشرق « جوزيف طومسون »(٣٦) أنه على الرغم من الاتصال التجارى والاجتماعى والبشرى بين شعب نصف متحضر فى مسقط ، وبين شعوب السواحل الشرقية الافريقية ، لعدة قرون متوالية ، الا ان ذلك لم يترك فى الاخرين أثرا للصفات الراقية التى كان يتصف بها جيرانهم ولم تنبت بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين ٠

ومن الحالات الجديرة بالذكر أن عددا كبيرا من تجار العرب ، عبروا البحر الأحمر فى طريقهم الى أوغندة ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، واستطاعوا أن يقنعوهم باعتناق الاسلام ، حتى اسلم عدد كبير من الاوغنديين فى عهد ملكهم موتزا Mutesa ، واقنعوهم بتحريم الاسلام لتجارة الرقيق ، غير أن المحاولات التبشيرية المسيحية ، التى حدثت فى هذه

---

(٣٦) Mohammedanism In Central Africa, p . 877 .

البلاد ، منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أدت الى صراع كبير بين العقيدتين ، واستطاعت الارساليات المسيحية الكنيسية المدعمة بالمال والرجال ان ترد كثيرا من اسلمين الى النصرانية(٣٧) ٠

وهنا يجب أن نذكر حقيقة هامة ، هى أن المسيحية وحدها باسلوبها التبشيرى المنظم ، لم تكن العائق الوحيد أمام استمرار انتشار الاسلام ، فى افريقية ، ولكن بعض تجار الرقيق المسـلمين ، لم يكن من مصلحتهم الاستمرار فى نشر الدعوة الاسلامية ، لوجود التناقض الواضح بين العقيدة ، العظيمة ، السمحة وبين تجارة الرقيق ٠

غير أنه الى جانب بعض العوامل السلبية التى جابهت نشر العقيدة الاسلامية من السواحل الشرقية ، الى داخل القارة ، الا أنه كانت هناك عوامل ايجابية ، اسهمت فى نشر الاسلام ، ليس فقط فى وسط القارة ، وانما الى كثير من شعوب افريقية الاستوائية ، والغربية والجنوبية وتتلخص هذه العوامل فيما يلى :

أولا : ان البحر الأحمر لم يكن المعبر الوحيد للعقيدة الاسلامية فى افريقية ، ولكن هناك الصلات المباشرة بين شرقى الجزيرة العربية ، وعلى الأخص عمان ومسقط ، وبين الساحل الشرقى الجنوبى لافريقية ، بالاضافة الى المعبر الاساسى من منطقة الهلال الخصيب ، الى مصر وشمالى افريقية ، متوازيا مع حركة الفتوحات الاسلامية الكبرى ٠

ثانيا : على الرغم من التنافس الواضح بين حركة التبشير المسيحية فى افريقية ، وبين حركة الدعوة الاسلامية التلقائية الذاتية ، الا أن ارتباط حركة الاسترقاق الكبرى بالاستعمار الاجنبى المسيحى ، رجحت كفة ميزان اعتناق العقيدة الاسلامية على غيرها من المسيحية والوثنية ٠

ثالثا : عمق الوجودين السامى والحامى فى القارة ـ وهما كما اثبتت الحقائق العلمية فرعان للأصول المنبتية فى شرق وجنوب غرب شبه الجزيرة

---

(٣٧) Roscoe, The Baganda, p.229 .

العربية ـ جعل العقيدة الاسلامية أكثر تقبلا من غيرها ، بالاضافة الى بساطة الاسلام ، واتجاه أركانه مباشرة الى عقل وفكر وعاطفة الانسان الافريقى ٠

رابعا : انشاء السكك الحديدية والطرق البرية فى عمق القارة ، من شرقها الى غربها ، ومن شمالها الى جنوبها ، ساعد بطريق غير مباشر على حرية الحركة بالنسبة للدعوة الاسلامية ، خصوصا على يد التجار العرب ، الذين كانوا لايفرقون بين واجباتهم العقيدية وواجباتهم التجارية ٠

خامسا : لم يكن أمام المستعمر الاجنبى للقارة ، مفرا الا استخدام المسلمين المتعلمين والمثقفين فى مختلف مرافق ومؤسسات هذه المستعمرات ، وفى ذلك يقول المستشرق الالمانى بكر Becker (٣٨) انه لم يكن أمام حكومة افريقية الشرقية الألمانية الا اسناد آلاف الوظائف الى موظفين من المسلمين كما كان معلمو مدارس الدولة ، من المسلمين مما أدى الى دخول مدن وقرى بأكملها فى الاسلام ٠

ويضيف هذا المستشرق الألمانى ، قوله : انه قد لوحظ ان المعلمين المسلمين ، من السواحلية فى مدارس المستعمرة الألمانية ، كانوا يقومون بنشاط واضح وناجح فى نشر الدعوة الاسلامية بين أهالى بندى Bondei وديجو Digo فى افريقية الشرقية الألمانية ، وان هذا النشاط أصبح يسترعى النظر فى مستهل القرن العشرين ، وقد سايرت حركة التوسع فى نشر الدعوة الاسلامية ، انشاء السكك الحديدية ، والطرق التجارية الكبيرة ، فانتشرت فى خط مستقيم عبر افريقية الشمالية الألمانية ، حتى حدودها الغربية ، على بحيرة تنجانيقا ، وانتشرت نحو الشمال من اوسبرا Usambara الى مقاطعة كلمنجارو ، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا ، وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار والجنود وموظفى الحكومة المسلمين ٠

وكان الوثنيون فى افريقية يعتبرون اعتناق الاسلام مظهرا من مظاهر

---

(٣٨) Islam in Deutch-Ostafrica, p.10 .

الحضارة ، ودليلا على الترقى ، بل ان المستعمرين رغم كراهيتهم للاسلام الا أن مصالحهم الاستعمارية كانت تقتضى هذا التغيير ، ويقال ان الازدراء الذى كان ينظر به المسيحيون الى الوثنيين كـــان عـاملا حـاسما فى تحولهم الى الاسلام(٣٩) .

ويذكر السير توماس آرنولد(٤٠) ، ان نشر الاسلام بين الجبال ، كان أقل نشاطا منه فى السهول والوديان ، ويذكر سنشى Antonio Cecchi الذى زار مملكة رلمو Ralmo فى شرقى افريقية قصة اســـــلام أباباغيبو Abba Baghibo والد أمير هذه المملكة ، على أيدى ملسمين ظلوا لسنوات عديدة ينشرون الدعوة الاسلامية فى زى التجار ، وقد حذا حذوه أمراء الممالك المجاورة ، ورجال حاشيتهم ، حتى اعتنقت معظم قبائل الجلا الاسلام ، وكان أهلها ينتظرون بفارغ الصبر ، مواسم وصول التجار المسلمين، الى بلادهم ، ليس لمجرد التبادل التجارى ، وانمـــا للاستزادة من تعاليم الاسلام ، ولما شعرت الكنيسة ، بخطورة الوضع فى ، هذه القبائل ، وسرعة انتشار الاسلام بين قبائلها أرسلت اليهم بعثة تبشيرية منظمة يقودهـــا الكاردينال ماساجا Cardinal Massaja ولكن المحاولـة باءت بالفشـــل ، لدرجة أن القلة القليلة التى ظلت على وثنيتها آثرت عدم الاعتراف بالمسيح وبالله معا(٤١) .

ومما يدل على سرعة انتشار الاسلام بين شعوب افريقية الشرقية عبر البحر الاحمر ، ما يذكره ابن حوقل الجغرافى الرحالة العربى المشهور ، عن أن أهالى زيلع كانوا يدينون بالمسيحية ، فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى(٤٢) ، ولما زار أبو الفدا(٤٣) نفس المنطقة بعده وجدهم جميعـــا

---

(٣٩) Klamroth, Der Islam In Deutchotafrica,pp . 21 - 25 .

(٤٠) الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٩٢ .

(٤١) الدعوة الى الاسلام ص ٢٩٣ نقلا عن
Massaja, Da Zeila Alle Frontiere dei Caffa, VOI.II,160 .

(٤٢) ابن حوقل ص ٤١ .

(٤٣) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر جـ ٢ ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

مسلمين • ويؤكد أبو الفدا ، الدور الكبير الذى قام به التجار المسلمون عبر البحر الأحمر ، فى نشر العقيدة ، واستمرارية هذا النشر بدوافع ذاتية ، نابعة من عمق الايمان عند هؤلاء •

ويقول المستشرق جيوم(٤٤) انه فى القرن الخامس عشر ، هـــاجر من حضرموت جماعة من العرب المسلمين ، من أربعة وأربعين ، للدعوة الى الاسلام عبر البحر الأحمر الى شرقى افريقية ، وكان يؤم هذه الجماعة الشيخ ابراهيم أبو زرباى ، الذى أخذ طريقه الى مدينة هرر حوالى سنة ١٤٣٠ ، وتمكن بمعاونة اخوانه ، تحويل عدد كبير من الافارقة الى الاسلام ، ولا يزال قبره الى الآن ، موضع تبجيل واكرام فى هرر ، وهناك بالقرب من مدينة بربرة جبل الأولياء الذى لا يزال يخلد ذكرى هؤلاء الأولياء الصالحين ، الذين يقال انهم كانوا يجلسون هناك فى خلوة مقدسة ، قبل أن ينتشروا فى طول البلاد وعرضها لتحويل الناس الى الاسلام ، وقد ساد الاسلام شيئا فشيئا فى جميع أنحاء افريقية الشمالية الشرقية » •

ولكى نستكمل الحديث عن دور البحر الأحمر ، كطريق لنشر الدعوة الاسلامية فى افريقية ، يبقى أن نشير الى هذه الحقيقة ، وهى أن الدين الاسلامى شق طريقة الى أقصى جنوب القارة فى مستعمرة الكاب ، وفى ذلك يذكر تايل Theal (٤٥) ان مسلمى الكاب هم من سلالة أهالى الملايو الذين جاءوا الى هذه البقعة اما فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر وكانوا يتكلمون لغة محرفة من لغة البربر فى اطار اللغة العربية ، وبعض كلمات انجليزية من لغة الملايو ، وكان هناك كتاب صغير عجيب مؤلف بهذه اللهجة ، ومكتوب بحروف عربية ، وقد نشره وزير المعارف التركية فى القسطنطينية ســـنة ١٨٧٧ ليستعمل ككتيب صغير لتعليم قواعد الدين الاسلامى ، ولعل من أطرف ما يذكره هذا المستشرق عن هؤلاء المسلمين ، كـانوا خليطـــا من العرب

---

(٤٤) Documents sur l'Histoire, La Geograhie et Ie commerce de l' Afrigue Orientale, Recueilles, p . 399 .

(٤٥) **History and Ethnography of Africa South of zambesi , VOI . II , p . 263 .**

المسلمين ، والملاويين الذين أسلموا على يد التجار المسلمين الدائمى التجوال فى جنوب شرقى آســـيا ، بل وبعض الهولنديين المستعمرين الذين أقنعهم المسلمون باعتناق الاسلام ، وارتبط الجميع بفكرة الدعوة له فى جنوبى افريقية ٠

وفى سنة ١٨١٩ لفت كوبورك ، الاذهان الى نمو الاسلام فى بعض مذكرات ممتعة عن مستعمرة الكاب ، قال فيها « يقال ان الاسلام يتقدم بين العبيد والسود الاحرار من أهالى الكاب ، ونعنى بذلك أن الذين تحولوا من الوثنية الى الاسلام من بين الزنوج والسود على اختلاف أنواعهم كانوا أكثر عددا من الذين تحولوا من الوثنية الى المسيحية ، وهذا على الرغم من الجهود المضنية المنظمة التى تبذلها الارساليات التبشيرية الممولة من الكنيســـة المسيحية ، وكان الداعية المسلم يستطيع تحويل جموع أكبر من الافارقة الى الاسلام بمجهود أقل من مجهود المبشرين »(٤٦) ٠

وكعادة المسلمين حينما يستقرون فى مكان ما ، تتوافد عليهم جموع الأهل والأقارب والتجار فى حماسة منقطعة النظير ، ومايكاد يلتئم الشمل حتى يبدأ الجميع فى بناء المساجد والمدارس التى لعبت دورا كبيرا فى نشر الديانة الاسلامية ، ونمو المدارك التقافية بين الأفارقة(٤٧) ٠

وقد ركز المسلمون جهودا نشطة فى الجزء الغربى من مستعمرة الكاب وانشأوا ما يشبه الجامعة الاسلامية فى كلير مونت Claremont بجوار مدينة الكاب وجعلوا منها مركزا لنشر الدعوة الاسلامية وكان من بين نشاطاتهم فى نشر الاسلام تبنى الاطفال الشاردين أو المهملين ، وتنشئتهم على الديانة الاسلامية ، بالاضافة الى تدبير قوافل الحج فى كل عام الى مكة المكرمـــة ، وزيارة مدينة الرسول ، لترسيخ قواعد الدين الاسلامى ، فى قلوب المسلمين الجدد ، ومازالت هذه عادة الشعوب التى اعتنقت الاسلام فى كل مكان على

---

(٤٦) Colebrooke , The Life of Colebrooke , p.335 .

(٤٧) William Adams, The Modern Voyager and Traveller , VOI . I , p . 93 .

ظهر الأرض ، حتى أصبح حجاج بيت الله من هذه الشعوب العربية الاسلامية، ويمكن أن نعزو هذا النجاح الى العوامل التالية ٠

أولا : ان عملية التبشير المسيحية المنظمة الممولة كانت ترتبط فى أذهان الأفارقة بالعملية الاستعمارية ، مما يؤدى الى نفور الكثيرين منها بالاضافة الى عملية التعميد التى لم يكن يتقبلها الأفارقة بسهولة ، اذا قورنت بسهولة وسماحة ويسر اعتناقهم للاسلام ، حيث لم تكن تحتاج الى أكثر من النطق بالشهادتين وأداء الاركان الاسلامية المفروضة ٠

ثانيا : ان عملية التجانس فى الشكل والمظهر والملبس بالاضافة الى تجانس البيئة ، والابتعاد عن التعالى ، الذى يحرمه الاسلام ، كانت تقرب كثيرا بين قلوب الأفارقة ، وقلوب الدعاة المسلمين ، لدرجة أن عملية التبشير التى اتبعتها الكنيسة والاستعمار بعد ذلك ارتبطت بالقس والاجبار ، ومع ذلك لم يكتب لها النجاح ٠ ان زيارة الأفارقة الى الاراضى المقدسة الاسلامية ، كانت أشبه بعملية التأصيل التطبيقى ، للدعوة الاسلامية ، النظرية ، بالاضافة الى التجانس الطبيعى ، والاقليمى والحياتى الذى لم يكن يفرق بين الميدانيين الا عبور البحر الأحمر ٠

ولعل ذلك هو سر العمق الكفاحى الذى تخوضه كثير من الشعوب الاسلامية ضد الاستعمار والعنصرية فى افريقية حيث انه يحمل فى طياته جذور الخلاف الفكرى والثقافى والعقيدى وهو ما نشاهده فى اريتريا والصومال وجنوب غرب القارة الافريقية ٠

وعلى الرغم من بعد جزيرة مدغشقر عن الساحل الافريقى الشرقى بما يقرب من ٢٢٠ ميلا الا أن قبيلة انتيمورونا Antaimorona أكبر قبائلها قد تحولت الى الاسلام ويذكر المستشرق فريناد الفرنسى(٤٨) ان ذلك التحول الى الاسلام جاء مبكرا لدرجة أنه ينسبه الى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام شأنها فى ذلك شأن اريتريا والحبشة ٠

---

(٤٨) Les Muse lmans a Madagascar, p.19 .

الممالك والامارات الاسلامية التى تكونت شرق أفريقية :

لم يقتصر نشاط المسلمين على مجرد نشر الدعوة الاسلامية فى مختلف مناطق افريقية الشرقية وانما نتيجة للنجاح الذى أحرزه التجار والدعـــاة المسلمون فى هذه البلاد وبسبب الهجرات العربية المتتالية عبر البحر الأحمر بمقدماتها وعمليات الزواج والمصاهرة التى تمت بين العرب المسلمين وشعوب هذه البلاد وخاصة قبائل البجة التى كانت تمتد من جنوب مصر (النوبة) وشمال السودان وتتأثر حول ساحل البحر الأحمر مكونة الحزام الارترى حول اكسوم (الحبشة) بدأت تتكون امارات وممالك اسلامية بعيدة كل البعد عن مظاهر التدخل السياسى للدولة الاسلامية من دمشق أو بغداد ٠

ومن أهم هذه الامارات الاسلامية مارة شوا الاسلامية وامارة أوفات وذوارد وأرابينى وهادية وشرخا وبالى ودارة بالاضافة الى بعض الامارات والسلطنات الاسلامية فى الحبشة والصومال وجنوبى افريقية ٠

ويلاحظ أننا هنا نركز على المراكز والانشطة الاسلامية التى اتخذت طريقها عبر البحر الأحمر دون التعرض لغيرها من الامارات والقوى الاسلامية سواء فى شمالى افريقية ، ومصر وغرب ووسط افريقية حيث أن هـــذه الافرازات والكيانات الاسلامية جاءت نتيجة معابر اسلامية أخرى وذلك لايعنى أنه كان هناك نوع من الانفصال البشرى بين هذه الكيانات وانما كان التنقل والهجرة مستمرين بين الامارات والولايات الاسلامية المختلفة خاصة وقد كانت قبائل البجة تمثل همزة وصل كبرى بين مسلمى الحبشة والسودان ومصر وجنوب افريقية ٠

امارة شوا الاسلامية :

بمرور الزمن ومنذ وفد المسلمون الأوائل الى الحبشة عبر البحر الأحمر واستمرارا لعملية التدفق العربى على المناطق الشرقية لافريقية ســـــواء للاستقرار أو التجارة أو الدعوة للديانة الاسلامية وعلى مر القرون اندمج المسلمون فى القبائل الافريقية وتمكنوا عن طريق التفوق الثقافى والتجارى والتنظيمى والعقيدى أن ينشئوا ممالك وسلطنات جديدة بدأت صغيرة ثم

اخذت فى النمو والاتساع ٠

ويذكر مؤلف كتاب « الاسلام والحبشة عبر التاريخ »(٤٩) ان تفصيلا واضحا لهذه الممالك والسطات الاسلامية جاء فى وثيقة عربية هامة توصل اليها المستشرق الايطالى شيرولى Cerulli وقد أثبتت هذه الوثيقة عددا من الامارات الاسلامية على الهضاب الداخلية والسواحل الغربية للبحر الأحمر فى مقدمتها امارة شوا الاسلامية نسبة الى اقليم شوا المشهور فى هضبة الحبشة وان سلاطين هذه الامارة كانوا من بنى مخزوم التى ينتمى اليها القائد الاسلامى الكبير خالد بن الوليد وان نشأة هذه الدولة يعود الى سنة ٨٩٦ م أى بعد ثلاثة قرون وربع من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم وقد هاجر المخزوميون فى العصر الأموى واتغلغلوا داخل الهضبة الحبشية وأنشأوا لهم امارة اسلامية فى ذلك الاقليم وكان موقعها من أمنع المعاقل فوق مرتفعات الحبشة حيث تقع مدينة أديس أبابا الحالية ٠

ولا يوجد بهذه الوثيقة ما يميط اللثام عن كيفية نشأة هذه الامـــارة الاسلامية ولا تاريخ عهودها الاول ولكنها تفصل السنوات الاخيرة من حكمها حين بدأت عوامل الانحلال تنخر فيها نتيجة التمزق والخلافات التى قامت بين مشايخها والاضطرابات والصراعات الداخلية واسماء الفرق المتصارعـــــة وزعمائها(٥٠) ٠

وبسبب بعد هذه الامارة عن عيون المؤرخين المركزين على أحداث الدولة الاسلامية فى المشرق والمغرب وبسبب عزلتها ومناعتها حتى فى داخل الهضبة الحبشية نفسها ظلت فى معزل عن العالم لان منطقتها خصبة معتدلة الجو توجد بها كل متطلبات الحياة واشتغل أهلها بالزراعة والرعى اللذين كانا يسدان كل احتياجاتهم ٠

امارة ايفات الاسلامية :

تذكرها بعض المصادر ايفاد Ifat والاخرى تذكرها أوقـــات

---

(٤٩) فنحى غيث : ص ٨٣ ومابعدها ٠

(٥٠) Trimingham, **Islam In Ethiopia**, p . 58 .

والبعض يسميها جبره وهي امارة عربية اسلامية ظهرت في الوقت الذى كانت تتهاوى فيه ، امارة شوا نتيجة الخلافات والصراعات بين مشايخها وكان رجال هذه الامارة يراقبون عن كثب ما يحدث داخل الامارة السابقة وما وصل اليه أهلها من ضعف وتحلل وانتهزت الفرصة وجردت على امارة شوا أربع حملات انتهت باستيلاء عرب ايفات على شوا وكانت عاصمة هذه الامارة مدينة زيلع وتكونت من الامارتين امارة كبيرة مليئة بالمساجد والمدارس كما كان لها جيش تكون من خمسة وعشرين ألف من الجنود نصفهم من الخيالة والنصف الآخر من الرحالة(٥١) وقد بلغ من قوة امارة ايفات أن أميرها كان ينقاد له معظم الامارات الأخرى ماعدا هادية وان كان الجميع يخضعون لامبراطور الحبشة حتى انه كما تقول بعض المصادر وفي مقدمتها صبح الاعشى ومسالك الابصار وكانوا لا يتولون امارتهم الا بعد موافقته ومشورته(٥٢) .

مملكة هادية الاسلامية :

وكانت تقع جنوب ايفات وعلى الرغم من ضيق مساحتها اذا ما قورنت بايفات الا أن صاحبها كان أكثر أمراء الامارات الاسلامية مالا ورجالا وكان جيش هادية أضعاف جيش ايفات حيث تذكر المصادر أنه كان يتكون من أربعين ألف من الفرسان وضعفهم من الخيالة .

وقد اطلق المؤرخون المسلمون على هذه الممالك الاســـلامية الطراز الاسلامى لانها كانت تشكل على شاطىء البحر الأحمر طرازا اسلامية تتوسطه مدينة زيلع الكبيرة التى كانت عامرة بالجوامع والمساجد وتقام بها خطب الجمع والجماعات .

---

(٥١) Ullendorff, The Ethiopians, p . 36 .

(٥٢) صبح الاعشى جـ ٥ ص ٣٢٥ .